الجزء الأول

زيف الشيوعية

ظهرت الشيوعية منذ بدايتها كنظرة شاملة للعالم كله، تشرح ـ بترابط ـ كل ظواهره. السير فى أعقاب الفلسفة المثالية لهيجل (وتصحيح فلسفته لتقف على قدميها بدلًا من الوقوف على رأسها [هذا ما قاله ماركس]). كانت الماركسية اللينينية آخر محاولة لما أسمته بعد الحداثة «القصة العظيمة».

عادة ما تم تقسيم هذا النظام إلى:

- **المادية الجدلية.**
- **المادية التاريخية.**
- **الاقتصاد السياسى.**

وسوف نتعامل مع تعاليم كلٍّ منها.

من الغريب أن الشيوعيين يطلقون على أيديولوچيتهم «الاشتراكية العلمية»، مما يوحى بأن الفلسفة الشيوعية يمكن تأكيدها أو نفيها بالتجربة العملية. وهذا الزعم لا يمكن ـ بالطبع ـ وصف أية فلسفة أخرى به. فلم يزعم أى فيلسوف معاصر مثل آرثر شوبنهاور، أو فريدريك نيتشه، أو برتراند راسل، أو لودڤيج ڤيتجنشتاين، أو كارل پوپر أنه يعمل على أساس علمى. وفى الواقع، فإن الفلسفة إما تقتصر على نظرية معرفة، بمعنى النقد شبه العلمى للإدراك الحسى، أو تلاحق ما وراء الطبيعة، أى تخمينات فى علم الوجود مبنية على استنتاجات منطقية، لا يمكن إثباتها.

إن زعم الشيوعيين بأن أيديولوچيتهم ذات صفة علمية مناف للعقل بشدة، مما يسم مدخلهم الذى يفخرون به بالانحراف المبدئى، بمعنى انحراف المبدأ، وبمعنى الانحراف من البداية. يزعم الشيوعيون ـ ببساطة ـ بأن لهم نظرة صحيحة، يصلون بها «أتوماتيكيًّا» إلى النتيجة الصحيحة. إذا كان ذلك «علميًّا»، فعلى العلم الحقيقى أن يغيِّر من اسمه.

• المادية الجدلية

تدور الفلسفة الطبيعة الشيوعية حول:

* أحادية المادة، بمعنى مادة واحدة تشكل كل ما فى الوجود.

* منهاج شرح تطور الكون.

تتطلب الماركسية المادية قبول النقط الست التالية:

١ ـ هناك موضوع للمادة مستقل عن وعى الفاعلين.

٢ ـ يمكن تفسير الكون دون الرجوع لعناصر غير مادية.

٣ ـ لا يوجد إله.

٤ ـ لا وجود لعالم المثال [عالم للأفكار خارج العالم الحسى (أفلاطون)].

٥ ـ لا يوجد سوى المادة.

٦ ـ الأفكار غير مستقلة عن المادة.

ليس الشيوعيون أول الماديين؛ فقد سبقهم فى المادية الفيلسوف الإغريقى ديمقريطس، والفيلسوف المادى لودفيج فيورباخ (مات ١٨٧٢)، ولا حتى هم آخر الماديين كما سنرى.

اعتقد ماركس وإنجلز ـ كفيلسوفين واقعيين ـ أن العالم مستقل عن وعينا به، واعتبرا الوعى الإنسانى «ناتجًا، وظيفة، خاصية» للمادة.

لقد بيَّنا أن كل شىء محكوم بقانون العِلية، ومستمر فى الحركة، بدون غاية تؤدى إلى هدف. أما بالنسبة إلى العالم، فقد افترضا أنه لا علة خارجية له، لكنه موجود من الأبد. اجتنبت النظرية الشيوعية اعتراضات «دافيد هيوم» و«إيمانويل كانت» لمفهوم العِلية، وأصبحت النظرية الماركسية فى منتهى الحتمية؛ لتحصر حرية الإنسان فى «رؤيته الثاقبة للضرورة».

سببت بدائية الماركسية المادية فى إصابة لينين ببعض الصداع، حين اضطر لشرح السببية عند بداية الكون، وهو ما نسميه الآن «الانفجار العظيم ـ Big Bang». كذلك أصابته اللاحتمية (عدم التحديد) فى المستوى تحت الذرى التى اكتشفتها فيزياء الجسيمات متناهية الصغر أثناء

حياته بالاضطراب. وسبب له القانون الثانى فى الديناميكا الحرارية وقتًا عصيبًا، فطالما كان العالم أبديًّا، فلماذا لم تنخفض حرارته حتى الموت؟

وبالرغم من إصرار الشيوعية على أن المادة ـ فحسب ـ هى الحقيقة، فمع مارتن هيدجر، يمكن لنا أن نرى المادية الشيوعية نفسها ـ بما أنها تفسر الحقيقة المطلقة ـ كشكل من أشكال الروحانيات.

ونتيجة اكتشافات فيزياء الجسيمات متناهية الصغر، رأينا للمادة تساميًا إلى ما وراء الطبيعة، ما يعنى «النقض المادى للمادية» (جاستون باشلر). وعرفنا أن المادة والطاقة وجهان لشىء واحد، لدرجة أن «المادة» يمكن تعريفها بشىء لامادى دائم الحركة، شىء كان الفيلسوف الفرنسى فى عام ١٩٣٤ قد أسماه «الشىء ـ الحركة». وفى الوقت نفسه، فإن الاعتقاد السائد ذا الجذور العميقة فى قانون العِلية ـ المرتبط بشكل جوهرى بفكرة ثبات المادة ـ قد اختفى بعد أن أصبح الفيزيائيون قادرين ـ فحسب ـ على تحديد النتائج، مع استحالة معرفة الأسباب.

وبناء على الإدراك المؤخر من خلال منظور الفيزياء الكمية، ظهرت فجاجة وسذاجة المادية الماركسية ذات الطابع الميكانيكى للجاذبية أو الكهرباء على سبيل المثال، وأصبحت مضحكة فى الوقت الحاضر.

كان من الممكن الدفاع عن الماركسية بطريقة أفضل إذا كانت أعلنت اللاأدرية عن وجود الروح/ الله، اكتفاء بأنه لا يمكن إثبات وجود الله بتجربة عملية، ولكن ماركس وأتباعه ـ خصوصًا باكونين ولينين ـ اختاروا أن يفرضوا إلحادًا على افتراضات أيديولوچية عشواء.

وهم بهذا تصوروا أنهم يتجنبون النتيجة غير القابلة للرفض للفيلسوف پاسكال (مات ١٦٦٢): من الأفضل العيش على أساس وجود الله.. فإذا ثبت وجوده، فقد كسب الإنسان كل ما يمكن كسبه، وإذا ثبت عدم وجوده، فلن يخسر الإنسان شيئًا ذا قيمة حقيقية.

بالطبع كان لينين، كمهندس وفنى ونشط، ومحرك للجماهير، لا يرتاح لافتراض وجود إله يتداخل فى عمله، وكان يكره الدين فى الواقع. كذلك احتقر ميخائيل باكونين (مات ١٨٧٦) الدين والدولة بأقصى ما يستطيع من تحول للإلحاد، وكان من قبل ضابطًا من النبلاء لدى القيصر. برز باكونين كمتمرد محترف فوضوى، وكسياسى مهيج للجماهير. سمى الله «السراب» والدين «الخبل العمومى»، وقال: «طالما كان لنا سيد فى السماء، فسنظل عبيدًا فى الأرض».

بهذا أصبح الإلحاد ماركة مسجلة على الشيوعيين وكثير من الاشتراكيين، وتم اختزال الإله

إلى إسقاط بشرى، والدين أداة فى يد الطبقة الحاكمة للسيطرة على الشعب، وأفيون الشعوب، واعتبر لينين «محاربة الدين هى ألف باء المادية». وعمرت مناهج التدريس بالترويج للإلحاد العلمى بالعداء للدين. وفى الحقيقة، فيما عم الابتهاج والفرح فى شرق أوروبا بسقوط الشيوعية، فقد استمر الكثير على إلحادهم، على الأقل فى الممارسات العملية.

لكل ما سبق، لا يمكن توافق الإسلام مع الشيوعية، حتى لو ادعى ذلك أحد فى الشرق الأوسط، ولم يكن إظهار الاحترام لمحمد ﷺ من بعض الشيوعيين إلا على سبيل التظاهر، وباعتباره مجرد مصلح اجتماعى. ومن ذلك المنطلق، جاءت كتابات المستشرق الفرنسى اليهودى اليسارى ماكسيم رودينسون «La Fascination de L'Islam». ومن المثير للاهتمام أن نقاد المسيحية الرئيسيين ينظرون النظرة نفسها للمسيح، فيختزلون المسيح إلى مصلح اجتماعى يثير الإعجاب.

حتى يمنع مفكرو الشيوعية الاحتياج لإله كسبب أولى للكون، زيَّنوا فكرة قانون العِلية باستخدام مبدأ الجدلية المفترض أنه كامن فى الطبيعة... يتطور الكون، تبدأ الحياة، تظهر الأنواع.. كل ذلك نتيجة الجدليات. افترضوا «من الفكرة ونقيضها تأتى الفكرة المركبة من الاثنين» من هيجل، ولكن هيجل يتكلم عن عالم الأفكار، فكيف يتحول ذلك لعالم المادة؟

حاول الشيوعيون فى البداية إثبات أن التغيرات الكمية فى الطبيعة تأتى بتغيرات كيفية، وأن المتناقضات هى المحرك للتطور فى المادة. نعلم اليوم أنه لم يصح ولا مثال واحد للجدلية فى الطبيعة.

لذلك فى الفترة الأخيرة من الشيوعية، توقفت محاولات إثبات الجدلية، وأصبحوا عند استعمال المصطلح لا يربطون به أى معنى، مثل كثير من المصطلحات التى تخلو من المضمون.

فى الحقيقة، أصبحت الجدلية هى روح المادية: دينها. وفى الواقع، فقد أصبحت خطرًا على أيديولوچية الشيوعية نفسها؛ لأن بمقتضاها بعد أن يتحقق المجتمع الشيوعى، فلا بد ـ بسبب الجدلية ـ أن يتغير.

ولحل ذلك، ادَّعى ستالين (مات ١٩٥٣) فى «الماركسية ومسائل اللغة» بأن المتناقضات فى المجتمع الشيوعى ذات طبيعة «لا تنافرية»، وهو بهذا سلَّم ـ ببساطة ـ بأن **المنطق الجدلى لا يسرى على المجتمع الشيوعى!**

لقد انهارت فلسفة الشيوعية المادية ومعها أساسها الجدلى، قبل انهيار الاتحاد السوفييتى.

ومع ذلك، وعلى الرغم من رؤية التطور فى كل شىء بشكل لا يمكن تفاديه طبقًا لقانون السببية، والمنطق الجدلى، اتبع الشيوعيون ـ المشهورون دائمًا بأنهم نشطاء ـ الرأى الفصل الماركسى «لقد رأى الفلاسفةُ العالمَ بصورة مختلفة فقط، ولكن ما يهم هو تغييره» فعليهم أن يساعدوا التاريخ فى عالم لا يتكون إلا من مادة؟!

واحسرتاه، استعار ماركس من هيجل بالإضافة للجدلية، فكرته عن المنطق المزدوج.

بالضبط مثلما طالب پتروس داميانوس فى القرن الحادى عشر بأن تعمل الفلسفة كخادم للعلوم الدينية، ميَّز هيجل أيضًا بين مجرد التفكير الثقافى، ونوع أعلى من المنطقية الجدلية التى لا يمكن تأكيدها (ومن ثم يسهل تداولها). بالتطابق، وبينما قاد هذا المنطق الغنوصى (الباطنى) هيجل إلى «تقديس» الدولة، قاد ماركس إلى نزع كل قداسة من الدولة (هانز كيلسن).

* * *

• المادية التاريخية

ليست المادية التاريخية سوى تطبيق المادية الجدلية على التاريخ وعالم الأفكار (المؤسسات والأعراف الاجتماعية، القانون، الفن، الدين... إلخ). حاول الماركسيون بوضع افتراض فوق آخر، إثبات أن التاريخ يجرى وفقًا لمعايير داخلية نتيجة لـ «وسائل الإنتاج» السائدة، وتتطور الحياة الاجتماعية كتطور الطبيعة، وتم التسليم بأن الناس قد يظنون أنهم أحرار فى تصرفاتهم، ولكن فى الواقع تتضافر جهودهم جميعًا لدفع التاريخ فى الاتجاه الحتمى لـ: مجتمع شيوعى بلا دولة، بلا طبقات، بلا ملكية، يأخذ فيه كل فرد، ليس طبقًا لإمكانياته، ولكن طبقًا لحاجاته.

يمكننا تسمية ما سبق بـ «يوتوبيا المادية» أو «فردوسها الأرضى».

هنا أيضًا نرى انعكاس تأثير هيجل «فلسفة التاريخ»؛ حيث يجده تحقيقًا للذات من الناحية الروحية.

أرادت الماركسية أن تصبح أكثر من علم الاجتماع السلوكى. لقد ادعت القدرة على شرح كل الظواهر الاجتماعية على أنها تفاعل بين القواعد (المنتجة)، وبين البنية الفوقية المنعكسة عنها.

كانت العوامل الحقيقية للتطور الاجتماعى ـ مع ذلك ـ ليست هى الأفكار، ولكن هى «الصراع الطبقى»، بين الطبقتين الوحيدتين فى الوجود، القلة التى تملك، والكثرة التى لا تملك، أى جموع البروليتاريا.

جاء وصف ماركس لعلاقات العمالة على أسس أيديولوچية أكثر منها تجريبية، فبدلًا من طبقتيه (التى تريد كلٌّ منهما القضاء على الأخرى) يمكن للمرء أن يميز بسهولة ست طبقات:

أعلى الطبقة العليا ـ أدنى الطبقة العليا ـ أعلى الطبقة الوسطى ـ أدنى الطبقة الوسطى ـ أعلى الطبقة الدنيا ـ أدنى الطبقة الدنيا.

كذلك كان يجب على ماركس أن يكتشف أن هناك عوامل أخرى تترتب عليها علاقات البشر، منها على الأقل القيم والتقاليد والعائلة.

الأشد سوءًا فى هذا السياق، هو الدافع الماركسى للصراع الطبقى، الحسد والكراهية. كيف يمكن للعالم أن يحيا حينما يصبح مثل هاتين الفكرتين السلبيتين هما العاملين الرئيسيين للتغيير؟

للشيوعية حقيقة مطلقة واحدة، هى انتصار البروليتاريا وحزبها الطبيعى فى الصراع الطبقى الممتد.

تقول المادية التاريخية إن وسائل الإنتاج هى التى تحدد التاريخ، وليس الأفكار ولا القيم ولا جاذبية القيادات الإنسانية، ولا الموارد الطبيعية، ولا المناخ، ولا كثافة السكان.

بكل تأكيد لم يتطور العالم طبقًا للنظرية الشيوعية. وهذا واضح من انهيار البلاد الشيوعية.

عبَّر ستيڤان جاى جولد الأستاذ بجامعة هارڤارد عن رأيه فى حوار معه:

كانت المادية التاريخية خطأ هائلًا عندما رأت أن التاريخ يتحدد بشكل كامل بتأثير العوامل المادية، بينما فى الحقيقة، كان التاريخ يتوقف بالمثل ـ ولدرجة كبيرة ـ أيضًا على الأفكار.

* * *

• الاقتصاد السياسى

الماركسية فى جوهرها تصور متفائل للاقتصاد مبنى على افتراضات مادية بديهية، وفى الواقع، يعتبر الشيوعيون نظريتهم الاقتصادية ليست كشكل محتمل للاقتصاد، بل الشكل الوحيد والمحتوم. ومشكلتهم أن ماركس بنى النظرية كلها على ملاحظاته فى لندن منذ مائة وخمسين عامًا، وليس من تلك الملاحظات ما هو قائم الآن. (لا يوجد مجال فى المعرفة نظرياته أكثر تغيرًا من المعرفة الاقتصادية).

المفهوم الرئيسى عند ماركس هو «فائض القيمة ـ Mehrwert»، وهى تلك التى يضيفها العمل في المنتج.

وبإهمال دور رأس المال، والعقار، زعم ماركس أن الربح الذى يحققه صاحب العمل ليس إلا أخذ فائض القيمة. حافز الربح قوى لدرجة أنه يؤدى باستمرار لازدياد غنى الغنى وإفقار الفقير (العامل) وحرمانه من «فائض القيمة ـ Mehrwert» التى أضافها هو.

سيؤدى ذلك فى النهاية إلى تراكم رأس المال فى أيد احتكارية قليلة، تضخم الإنتاج، وأزمات اقتصادية. ومنذ عام ١٨٨٠ تقريبًا، أدى ذلك إلى رأسمالية احتكارية تركزت فيها رءوس الأموال فى أيد قليلة، وانصهرت البنوك مع الصناعة والعسكرة والاستعمار. وطبقًا للينين «الإمبريالية هى أعلى مراحل الرأسمالية» (١٩١٦)، وتبدأ عند ذلك القوى العظمى الرأسمالية فى التقاتل على الحصول على الطاقة، وتقسيم العالم بينها.

خلال تلك المرحلة الإمبريالية، نرى ظاهرة الرأسمالية الاحتكارية للدولة: تحوّل الرأسمالية المحتكرة الدولة إلى تابع خاضع يخدم مصالحها. ويرى لينين فى ذلك مرحلة انحطاط وموت الرأسمالية، وظهور الشيوعية «تجريد المستغلين من أملاكهم» (ماركس).

مرة أخرى، تتصادم النظرية الشيوعية مع الواقع:

* بدلًا من أن تخضع الدولة للمصالح الرأسمالية، اتبعت الدول الحديثة سياسات صممت لكبح الممارسات الاحتكارية (قوانين العمل، والتشريعات الاجتماعية والمضادة لتركيز رأس المال، ضرائب متزايدة على أرباح المؤسسات، سياسات مالية مستقرة). وفازت أحزاب العمال بالانتخابات فى معظم دول أوروبا الغربية.

* انتهت الفترة الإمبريالية باستقلال البلاد المستعمرة، وأصبحت «العسكرة» ظاهرة فى العالم الاشتراكى ودول العالم الثالث ولكن ليس فى الغرب. تتمتع القوى الغربية بأعلى مستوى للتجارة البينية، ولم ترَ دول أوروبا الغربية الرأسمالية صراعًا عسكريًّا داخليًّا واحدًا لمدة تزيد على نصف قرن.

* * *

• العقيدة السياسية

تؤدى الإستراتيجية والتكتيكات السياسية الشيوعية إلى عالم متوتر. تصبح الشيوعية

عالمية من خلال «ثورة عالمية» تؤسس ديكتاتورية البروليتاريا (إنجلز ١٨٤٧). «المهمة التاريخية العالمية» للطبقات العاملة التى تسمى الدولية البروليتارية، هى توحيد عمال الصناعة والفلاحين، والطبقة الوسطى الدنيا (البرجوازية الصغيرة) والمثقفين للعمل الثورى المشترك.

توقع الماركسيون أن تبدأ تلك الثورة فى الولايات المتحدة، بريطانيا، فرنسا، ألمانيا فى الوقت نفسه؛ حين يكتسب العمال «وعيًا ثوريًّا» كافيًا بسبب أحوالهم فى المجتمع. أما البلاد الريفية مثل روسيا والصين، فهى آخر البلاد التى قد تطولها الثورة.

توقع ماركس وإنجلز أن تقوم الطبقة العاملة بالعمل الثورى، أما لينين فقد بنى أمله على الصفوة من حزب الثوار المحترفين، ذلك الحزب الذى اعتبر ـ بعد ذلك ـ «دائمًا على صواب»، وبالتالى فله أن يحارب دائمًا من يخالفه من المنحرفين والمثقفين.

طالبت الشيوعية الدولية (عام ١٩٢٠) الأحزاب الشيوعية أن تساند حركات التحرر القومية فى العالم، ولكن بدون إغفال حقيقة أن «الاشتراكية أهم من حرية تقرير المصير» (لينين ١٩١٨). وعلى سبيل المثال، كان على الشيوعية أن تحارب الديمقراطية الليبرالية، والقوى الدينية، خصوصًا «الإسلامية»، بينما تؤيد «الوحدة العربية».

كان على ديكتاتورية البروليتاريا ـ وهى القوة السياسية العليا، التى لا يحدها قانون ولا تشريع ـ أن تطبق الاشتراكية فى ١٠ ـ ١٥ سنة بتأميم الصناعات والزراعات، وإعادة تجميع وتعليم المجتمع. فى تلك المرحلة، يحتكر الحزب الشيوعى، وهو الحزب الوحيد المسموح به، كل القوى ويحتفظ ببيروقراطية الدولة. الأمر الذى يجدر الاحتفال به كـ «**أعلى أشكال الديمقراطية**»!.

بعد تحقيق الاشتراكية، يمكن للعالم التحرك نحو المرحلة النهائية. طبقًا لبرنامج بوكانين الاشتراكى الثورى (١٨٦٥/ ١٨٦٦) ستذوب كل المنظمات الدينية والسياسية والاقتصادية والاشتراكية فى آخر مراحل الشيوعية.

لن يكون هناك: دين، دولة، محاكم، بنوك، جيش، شرطة.. كل ذلك سيختفى. سيكون هناك مجتمع لامركزى حرٌّ بدون طبقات ولا تناقضات، مجتمع، يجد فيه كل فرد ما يحتاج.

بعد ذلك، ادَّعى المنظرون المتأخرون: أنه تحت النظام الشيوعى ستختفى حتى الفروقات بين المدن والريف، بين عامة المواطنين، وسوف يدير كل المواطنين كل شىء! تذكر أن القائلين بذلك يتحدثون دائمًا عن «أفيون الشعوب»!.

فى مسألة ماذا يجمع مثل هذا المجتمع أخلاقيًّا، أدلى باكونين بدلوه فقال:

«واجبنا نحن ـ أعداء الدين ـ أن نمارس الحب»! ثم زعم أن الإنسان لا يحب إلا من يحتاج إليه؛ لذلك يحب المتدينون الله، ولكنهم لا يستطيعون أن يحبوا جيرانهم، أما الملحدون فلأنهم يحتاجون لبعضهم البعض فى المجتمع، فهم يحبون بعضهم البعض!.

كان المخطط للاتحاد السوفييتى أن يصل تمامًا إلى المرحلة النهائية للشيوعية عام ١٩٨٠. قبل انهياره بعشرة أعوام!.

بوضوح شديد، كان التناقض فى المجال السياسى بين النظرية الشيوعية والواقع كارثيًّا:

* الطبقة العاملة تتناقص عدديًّا فى العالم. تمتلك الطبقة الآن أعدادًا كبيرة من العمال الآن وسائل إنتاج (أسهم فى المؤسسات والشركات والمصانع، وكثير منها يمتلك بيوته).

* التظاهرات الاجتماعية فى الغرب قادها الطلبة، كما حدث عام (١٩٦٨) وليس العمال، وليس للطلبة مكان فى المسار الشيوعى.

* على العكس من النظرية، قامت الثورات الشيوعية فى بلاد مثل روسيا والصين وليس فى العالم الغربى الصناعى.

* لم يحدث التحول فى الدول التى أصبحت شيوعية من تحرك القاعدة الشعبية، ولكن بواسطة القوة العسكرية من أعلى.

* لم تؤدِ الأنظمة الاشتراكية فى الاتحاد السوفييتى والصين إلى اختفاء الصراعات (الداخلية) السياسية والاجتماعية، والعرقية، ولم تؤدِ إلى ارتفاع الإنتاجية عما يسمى «العالم الرأسمالى».

* تحولت ديكتاتورية البروليتاريا إلى ديكتاتورية بيروقراطية الحزب، وتولدت طبقة ذات «اسم» جديد.

• الخلاصة

(أ) **كانت الشيوعية** أول محاولة فى العصور الحديثة لتغيير وتنظيم، بشكل كامل، ليس فقط الدولة والاقتصاد والمجتمع، بل حياة كل أفراد البشرية.

لم تكن محاولة لتطهير العالم من كل أعداء الشيوعية، ولكن لخلق «الإنسان الاشتراكى الجديد»، المخلص للعدل الاجتماعى والمساواة. ولتحقيق ذلك، سولت الشيوعية لنفسها ارتكاب أبشع الجرائم ضد الإنسانية، فقد قامت الأنظمة الشيوعية تحت حكام مستبدين لا تعرف الرحمة طريقًا لقلوبهم مثل لينين، ستالين، ماو، پول پوت، بقتل عشرات الملايين من النفوس البشرية، فيما يمثل عملية تطهير طبقى دموى.

كذلك أخفقت الشيوعية فى المجال الذى اعتبرته مزيتها الكبرى: الاقتصاد.

(ب) **مثلت الشيوعية** أكبر تهديد لحقوق الإنسان ورفاهيته الاجتماعية.

كان انهيار الشيوعية حتمًا، ولكنك لا تفتأ تجد بين بعض مفكرى وفنانى الغرب والعالم الثالث من تفتنهم الشيوعية، ربما أرادوا أن يحلموا باشتراكية ذات وجه إنسانى.

أدى الافتتان بالشيوعية فى ألمانيا فى السبعينيات، إلى إقامة «الكوميونات» التى مثلت نماذج تجارب موسكو عام ١٩١٨. لقد فكروا جديًّا فى تدمير العائلة، وتربية الأطفال بطريقة جماعية. تحول المشهد اليسارى فيما بعد ١٩٦٨ إلى العنف. ظهرت منظمات إرهابية مثل «الجيش الأحمر ـ RAF» فى ألمانيا، «الألوية الحمراء ـ Red Brigades» فى إيطاليا، «العمل المباشر» فى فرنسا، وبررت إرهابها بأنه عنف مضاد لعنف الدولة المنهجى، ورفعوا الشعار التبريرى «دمر ما يدمرك».

وبهذا أثبتوا أن اليوتوبيا السياسية ـ قيد الممارسة ـ تهدد الفرد وحريته.

فقط، قليلون ـ مثل يوشيكا فيشر ـ تبين لهم بسرعة أن وسائل الفكر التكنوقراطى للشيوعية، لا تقل تدميرية لأهدافها الإنسانية عن الفكر النفعى فى الرأسمالية.

(جـ) **اختفت الشيوعية** من أوروپا وأفريقيا كاختفاء الشبح، فورًا عقب سقوط حائط برلين فى ١٩٩٠. لم تنهر قوة عظمى فى التاريخ بسرعة وبصمت مثل انهيار الاتحاد السوڤييتى، ومعه انهارت كل البنية الفوقية بالكامل للأيديولوچية الشيوعية. أكثر الناس لا يريدون حتى تذكر الشيوعية، فهم إما خجلوا من ذلك، أو ملوا الكلام عن ذلك.

اختلف النقاد فى أسباب انهيار الاتحاد السوڤييتى، وفى رأيى أن نادية مصطفى (القاهرة) وضعت إصبعها على السبب الرئيسى: «انهيار الأخلاق».

(د) **أدى انهيار الاتحاد السوفييتي** إلى اختفاء الماركسية من مجال البحث العلمي. إلا أن «الكتاب الأسود للشيوعية» الذى نشره ستيفن كورتواز عام ١٩٩٨، ماثل بين الشيوعية والفاشية فى عدة مجالات، فكلٌّ منهما تكلم عن «الرجل الجديد»، وطالب بالخضوع الكامل للدولة. كلٌّ منهما استخدم القوة الفجة فى فرض نظامه، وكلٌّ منهما رفع شعار «يجب إعدام كل من يقاوم». ليس فقط لينين، بل ماركس من قبله، اعتبر إرهاب روبسپير النظامى فى الثورة الفرنسية مثلًا يحتذى به.

حرب الدولة على مواطنيها، هى أقصى أشكال الصراع فى الشيوعية والفاشية.

فى فقرة واحدة: لم تكن الشيوعية فكرة طيبة ساء تنفيذها، بل هى فكرة سيئة منذ البداية، ولا يمكن تنفيذها.

* * *